نشأة المدن وعلاقتها بوفرة الغذاء

محمد محمود احمد محمدين :
محاضر بقسم الجغرافيا

لم تستأثر ظاهرة العمران المدني باهتمام الجغرافيين وعلماء الاجتماع فحسب ، بل انها استقطبت اهتمام كل أولئك الذين تدور دراستهم حول الانسان ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة نذكر منها أن المدينة حديثة العهد في تاريخ وجود الانسان على سطح هذا الكوكب . وأنها تمثل تغييراً جذرياً في أنماط حياته وأبعاد وجوده الاجتماعي ، كما أنها ما أن ظهرت ككيان عمراني جديد حتى بسطت نفوذها على ما يجاورها وما يحيط بها من مناطق فانقادت لها طواعية وكرهاً وأصبحت المدينة بذلك مركزاً للقيادة والتأثير الفكري والاجتماعي والاقتصادي .

ومن الأمور التي زادت من اهتمام الباحثين في ظاهرة العمران المدني أن هذا النمط العمراني الذي ظهر منذ بضعة آلاف من السنين استمر دون انقطاع ولم ينته بعد بل تشعبت مسالكه وازداد تعقيداً .

ان المدينة كظاهرة جغرافية تختلف عن الظاهرات الجغرافية الطبيعية الأخرى لأنها من صنع الانسان وتتمثل فيها حضارته وثقافته ، فمن يتطلع الى مدينة فقد تطلع الى نوع من الثقافة ، ومن يتجول بين شوارع مدينة وحاراتها فقد تجول بين سطور تاريخها وتعرف على عادات شعبها وثقافته ومظاهر حضارته . ان المباني طرازها والشوارع ونظامها لغة قلما يخطىء فهمها من تمرس على قراءتها . ان نظرة الى مئذنة تعني وجود عدد من المسلمين ، ورؤية عدد كبير من المساجد تعكس مدى الاهتمام بالدين الاسلامي ، كما أن الآثار والأطلال القديمة في مدينة ما تشهد بالجذور التاريخية لوجودها .

والمدينة موضوع للدراسة له مداخل كثيرة وأبواب متعددة . آثرت أن أتناولها كموقع فرض تعينه وتحديد وجوده الغذاء ، وتخيرت الغذاء لأنه أساس وجود الفرد . ومدار سعيه . فهو يقود حركته ويوجه سلوكه . وما المدينة إلا أفراد ، وما يتحكم في الفرد يخضع له الأفراد . ونبدأ دراستنا بالإجابة عن السؤال الآتي :

ما الظروف التي ادت الى ظهور المدينة ؟ سؤال يفرض نفسه في مقدمة هذا المقال . والاجابة عنه تتطلب الاجابة عن سؤال آخر عما يقصد بالمدينة ؟ سؤال تبدو الاجابة عنه سهلة هينة . ورغم أن كل انسان تقريباً يعرف ماذا يقصد بالمدينة ، إلا أنه حتى الآن لم يتفق الجغرافيون وغيرهم على تعريف جامع مانع لها .

ان كلمة « المدينة » في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى مشتقة من « دان » يدين أي حاكم (١) ، و « الديان » القاضي . فهي مكان اقامة القاضي . وفي هذا اشارة الى وظيفة الحكم والادارة وهي من أولى وظائف المدن في التاريخ القديم . وعلى الرغم من أن الجغرافيين يختلفون في تعريفهم للمدينة إلا أنهم يجتمعون حول خمسة أسس رئيسية (٢) لتعريفها هي :

(١) محمد السيد غلاب ، جغرافية الحضر ، ص ٤٢ .
(٢) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، ص ١٢ .

أ ـ الأساس الاحصائي أو الكمي :

ويستند الى عدد معين للسكان بمعنى أن التجمع السكاني أو الحلة اذا وصل سكانها الى عدد معين تصبح مدينة ، ويختلف هذا الحد العددي بين الدول ويتفاوت بين ألفي نسمة في « تركيا » وأحد عشر ألف نسمة في « مصر » . وأهم ما يوجه الى هذا الأساس العددي اختلاف الدول حول تحديده ، كما أنه ليس بمعقول أن تتحول المدينة الى قرية . اذا ما نقص عددها .

ب ـ الأساس الاداري :

وهو أن المدينة تحدد بمرسوم قضائي أو قرار اداري يعلن أنها مدينة على أن مراسيم المدن لم تعرف في مناطق كثيرة ومنها الشرق الأسط . والأساس الاداري أساس لاحق لوجود سابق . فالمدينة وجدت أولاً ثم استحقت اسمها .

جـ ـ الأساس التاريخي :

يرى بعض الكتاب ومنهم «ماكس سور –Max Sorre» (٣) أن التاريخ ييسر لنا تعريفاً وافياً للمدينة ، وأن الآثار التاريخية في أي تجمع عمراني أقدر على تفسير وجودها من عدد سكانها . ويعترض على هذا التعريف بأن هناك مدناً كثيرة بدون تاريخ مثل مدن التعدين والمدن الأمريكية .

د ـ الأساس الوظيفي :

ويعتمد هذا الأساس على نمط الحياة ، فالقرية تعتمد على الزراعة ، والمدينة ليست كذلك أي أن المدينة هي التجمع اللازراعي (٤) .

وقد عبر « روبرت لوبز – Robert S. Lopez» (٥) عن المدينة بأنها ملتقى الطرق . وخير مثل على ذلك في نظره تعبير المصريين القدماء عن المدينة في كتابتهم الهيروغليفية حين رمزوا للمدينة بخطين متعامدين داخل دائرة (٦) يدلان على الطرق المتقاطعة . وربما كان رمز المدينة الفرعونية هو أقصر وأقدم تعريف للمدينة يتفق ورأي لوبز . وقد يعترض على ذلك بأن المصريين القدماء . ربما لم يقصدوا برسم الصليب أن يرمزوا الى تقاطع الطرق .

وقد عرف «ديكنسون – Dickinson » (٧) المدينة بأنها تجمع عمراني متكدس يعمل أغلب سكانه بحرف غير الزراعة كالتجارة والصناعة .

---

(٣) Chabat, G. Les Viles, Paris 1948, P. 11

(٤) جمال حمدان ، جغرافية المدن ص ١٢ .

(٥) محمد السيد غلاب ، المرجع السابق ص ٤٩

(٦) Emrys Jones, Towns and eities, Oxford University Press, 1966, P.6

(٧) Chauncy D. Harris , Readings in urban Geog., Chicago, 1969, P.277.

هـ – الأساس المظهري العام :

ويتلخص هذا التعريف في أننا يمكن أن نتعرف على المدينة من مظهرها العام . إذ أنها قمة التطور الحضاري . وتتضح بصمات هذا التطور في مبانيها العامة وشوارعها ومصانعها . إلا أن هذا التعريف لا ينأى عن دائرة الاعتراض . فهناك كثير من القرى ذات التخطيط الهندسي الحديث لا تختلف في مظهرها عن كثير من المدن .

وهناك تعاريف أخرى عديدة . على أننا نلاحظ أن معظم هذه التعاريف تنظر الى المدينة على أنها تجمع بشرى عمراني يشتغل أغلب سكانه بأعمال غير زراعية . ومما تجدر الاشارة اليه أن معظم التعاريف لا تستبعد الزراعة تماماً من أعمال سكان المدينة .

وهناك سؤال آخر : **ما الظروف والعوامل التي أدت إلى ظهور المدن ؟**

يقال أن المدينة وليدة فائض من الطعام والوقت ، فائض من الطعام سمح لبعض الأفراد بالانصراف عن الزراعة الى أعمال أخرى ، وفائض من الوقت سمح بالتأمل والتفكير والابتكار .

لقد كان هم الانسان الأول وما زال هو الطعام . فقد تحرك الانسان بحثاً عن الطعام من مكان الى آخر ، وتدرج في وسائل انتفاعه بسطح هذا الكوكب وموارده . فكان يطارد الحيوانات . ويلتقط الثمار من فوق رأسه أو الجذور من تحت قدميه . ولم يعرف الاستقرار بل كان ينتقل وراء طعامه ممثلاً في فريسة يطاردها . أو ثمار يبحث عنها . ولم يعرف الانسان خزن الطعام . بل كان يستهلك طعامه متى حصل عليه . وكان الوجود الانساني ممثلاً آنذاك في جماعات مبعثرة لا تعرف الاستقرار ، واستغرقت هذه المرحلة التي اكتفى الانسان فيها بالتطفل على موارد بيئته ، والتي تعرف بمرحلة الجمع والالتقاط . آلاف السنين (٨) . وعلى رغم مرور عشرات الآلاف من السنين على تحول معظم شعوب الأرض عن هذه الحالة . فما زالت بقايا تستحق الذكر من جماعات بشرية كثيرة تعيش على الجمع والالتقاط والصيد مثل « البوشمن – Bushman » و« السيمانج – Semang » والاستراليين الأصليين وسكان « تيراد لفويجو – Tierradel Fuegons » مع الفارق بينهم وبين من سبقهم . إذ زادت المعرفة بالحيوان . وتنوعت أساليب صيده . بعد أن انتهت اليهم تجارب أجدادهم عبر آلاف السنين وتناقلتها الأجيال . وأسوق مثالاً لذلك هنود الأثابا سكان (٩) « Athapascan » الذين يستعملون مائة وستاً وسبعين أداة للصيد منها ثلاث وعشرون أداة لصيد الأسماك وحدها .

ويشترك أولئك الذين يعتمدون حتى اليوم على الجمع والالتقاط والصيد مع أسلافهم السابقين في أنهم يمارسون عملاً واحداً لا يتغير ، وأن خزن الطعام عندهم أمر صعب غير ميسور ولذا يستهلكون الطعام فور الحصول عليه .

وقد تطور الانسان وتطورت ثقافته . فتعلم أموراً جديدة في حياته من أهمها كيفية اشعال النار واستخدامها . ثم اختراع الآلات . ثم وسائل الاتصال والتخاطب مع الآخرين . ويطلق على هذه الأمور الثلاثة « الدعائم الثقافية الثلاث » . (١٠) The Tripod of Culture

(8) Emrys Jones, Human Geog. London 1967, P. 85.
(9) Emrys, Op. Cit, P. 86.
(10) Ibid, 87.

كذلك تقدم الانسان خطوة أخرى . في طريق حصوله على الطعام . لقد استأنس الحيوان . ولم يعد يطارده ليقتله ، بل أصبح حريصاً عليه أن يهتم به ويرعاه ، ولكن الانسان الذي لم يعرف الاستقرار ما زال متنقلاً يرعى حيواناته ويقودها الى مناطق العشب ، ثم تحولت المطاردة الى نوع من مصاحبة الحيوان ، غير أن الحركة لم تنقطع والتنقل لم ينته .

واستأنس الانسان حيوانات الرعي . كما استأنس النبات . ولم يتنقل للبحث عن البذور والثمار . بل أصبح يزرعها ويتحكم فيها ويعرف مكانها ، ويطلق على هذا التحول الكبير الذي حدث في العصر الحجري الحديث ، الثورة الحضارية ، أو الثورة الزراعية . وقد حدث هذا التغير في الشرق الأوسط منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد . ان هذا التغير ثورة في مضمونه . لأنه انتقال الى انتاج الطعام بدلاً من جمعه ، لكن لفظ الثورة قد يكون مضللاً لأنه يوحي بالتغير المفاجيء . أما اكتشاف الزراعة فقد استغرق وقتاً طويلاً في معرفة خصائص نمو النبات ، وممارسة المحاولة والخطأ في عملية الزراعة ، ثم في عملية تبني أسلوب الزراع وانتشار الزراعة على مستوى المجتمع لاعادة صياغة البناء الاقتصادي .

لقد أحدث هذا التحول تغيراً كبيراً في المجتمع تردد صداه وامتدت آثاره في بيئة الانسان الطبيعية . لقد أزال الانسان الحشائش والأشجار ليحل محلها الزراعة . فغير مظهر السطح . واستخدم الآلات الحجرية القاطعة المصقولة فتمكن من قطع الأشجار وحفر التربة واكتسبت حضارة العصر الحجري الحديث اسم –« Neolithic » من هذه الأدوات الحجرية المصقولة .

ان هذه التطورات قد أدت في الشرق الأوسط الى استقرار الانسان ، فهجر كهوفه ، وكوّن مجموعات أنشأت القرى التي حققت له ما كان يصبو اليه من أمن وحماية لممتلكاته الشخصية المتمثلة في زرعه وأدواته ، وتعلم الانسان التعاون وجنى ثماره .

ولقد أدت هذه التطورات الكبيرة الى أن يستقر الانسان لأول مرة وأن يصبح لديه فائض من الطعام وفائض من الوقت ، وكان من نتائج ذلك أن انصرف بعض الناس الى أعمال غير زراعية ، الى الصناعة والتجارة والتأمل والتفكير فاخترعت الكتابة ، وظهرت التجمعات الحضرية وليدة لفائض من الانتاج الزراعي . يقول «آدم سميث (١١) Adam Smith » : « ان الأرض ينبغي أن تنتج فائضاً ليدعم المـــدن » .

ومن الحقائق التي لا تنكر ، أن أقدم المدن التي عرفها التاريخ . كانت مدناً زراعية نشأت في سهول الأنهار الفيضية الخصيبة في وادي النيل ووادي دجلة والفرات عندما قام الانسان بإنتاج طعامه . واستطاع أن يحقق فائضاً منه .

ومن الآراء التي تستحق الذكر في موضوع الارتباط بين التجمعات العمرانية وحرفة الزراعة . رأي الجغرافي الأمريكي « كارل سور – Carl Sauer » (١٢) الذي يخالف آراء معظم الباحثين القائل بأن التجمع العمراني أحدث التحول من جمع الطعام الى انتاجه ، فهو يرى أن استقرار التجمعات البشرية بدأ قبل أن يتم التحول الى انتاج الطعام . وهذا يخالف معظم آراء الباحثين ، لأنه يعني أن الاستقرار لم يتم إلا بعد وجود الفائض الذي كان دافعاً للتحول من الجمع الى الانتاج ، على حين يرى الباحثون

(11) Chauncy D., OP. Cit., P. 277
(12) Emry Jones, OP. Cit, P. 97

أن الجوع والحاجة الى الطعام كانا دافعين للتغيير . وينفرد « سور » كذلك بقوله أن انتاج الطعام بد أول ما بدأ في نطاق الغابات التي ما زالت حتى الآن ميداناً للزراعات البدائية .

ويلاحظ على المدن القديمة ، أنها كانت صغيرة الحجم . فمثلاً مدينة «أور — Ur. » بقنواتها ومعابدها ومبانيها امتدت على مساحة تقدر بنحو مائتي وعشرين فداناً (١٣) . وهذا يعني أنها لم تضم أكثر من خمسة آلاف نسمه . ويرجع السبب في قلة سكان المدن ونموها العمراني البطيء الى استخدام الوسائل البدائية في الزراعة بحيث لم تحقق فائضاً كبيراً يكفي لتفرغ عدد كبير من السكان لممارسة حرف أخرى غير الزراعة . ومن هذه الوسائل الفؤوس الحجرية الصغيرة .

وفي مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد . عرف الانسان استعمال معدن البرونز في الشرق الأدنى (١٤) ويعتبر هذا الكشف الانقلاب الثاني الكبير الذي وجه الحضارة البشرية وجهة جديدة . فتحرر الانسان من استعمال الآلات الحجرية . وظهر المتخصصون في الصناعة المعدنية ، وأدى هذا كله الى مقومات ثورة اقتصادية كبرى هي التي يعنيها « جوردون تشايلد » بالثورة الثانية وهي التحرر والاستقلال الاقتصادي عن الزراعة والاعتماد على الصناعة والتجارة .

على أنه مهما يحدث من تطورات فإن المدن ما كانت لتبتعد إطلاقاً عن مصادر حاجاتها الغذائية وموارداها المائية ، فقد عاش الانسان طوال وجوده على سطح هذا الكوكب قريباً من مصادر المياه والغذاء ولم يجرؤ على الابتعاد عنها . ومعظم المدن والقرى القديمة كانت تلتصق بالأنهار . وتقترب من العيون والآبار حتى تجد التجمعات البشرية امداداتها المائية ، واذا لم يتوفر لها الماء من مطر يسقط . أو عين تنبثق من الأرض أو نهر يدوم فيه جريان الماء . فاننا لا نجد أي تجمع أو استقرار بشري .

وحينما نتتبع نشأة أول مدن المملكة العربية السعودية « مكة المكرمة » التي تضم « أول بيت وضع للناس » نجد أنها نمت في واد غير ذى زرع . وتحيط بها الجبال . ولا تترك لها إلا منافذ ثلاثة تصلها بالجنوب (اليمن) والشمال (الشام وفلسطين) والغرب (جدة) . وكان من رحمة الله وفضله أن فجر الماء العذب من بئر « زمزم » .

وقد ذكر بطليموس السكندري مدينة مكة باسم « ماكورابا — Macoraba (١٥) » . وذلك في القرن الثاني الميلادي ، ويفسّر بطليموس هذة التسمية بأنها مأخوذة من لغة الجنوب « ملك » بمعنى بيت . و « راب » بمعنى إله ، فتصير الكلمة بمعنى بيت الرب أو الإله . وصارت تنطق مكة وبكة على عادة أهل الجنوب في قلب الحروف .

ويقول « بروكلمان » إنها مأخوذة من « مقرب » العربية الجنوبية وتعني الهيكل وتعني « ماكارابا » بالأرامية الشرقية « الوادي العظيم » . وقد أطلق القرآن الكريم على مكة « أم القرى » لأنها كانت عاصمة للمنطقة كلها .

---

(13) Childe, What happened in history (١٣)

(١٤) محمد السيد غلاب ، تطور الجنس البشري ، القاهرة سنة ١٩٦٣م . ص ٢٢٥

(١٥) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية والاسلام ، ص ١٥٢ .

لقد نمت مكة المكرمة ـ بالرغم من عدم توفر الغذاء ـ وذلك لأن الله جعلها قبلة ومثاباً وأمناً يقصدها الناس من كل فج عميق .

ولقد ساعد على نمو هذه المدينة وجودها في منتصف الطريق التجاري المهم الذي يربط بين بلاد اليمن ذات المناخ الموسمي والغلات الزراعية الموسمية ، وبين بلاد الشام التي تتبع مناخ البحر المتوسط ذا المطر الشتوي والذي ينتج غلات تختلف عن غلات اليمن مما ساعد على التبادل التجاري .

وكانت مكة المكرمة ـ بموقعها وبمائها المنبثق من بئر زمزم استراحة للقوافل . وأدت صعوبة الملاحة في البحر الأحمر بسبب وجود الشعاب المرجانية ، وعدم صلاحية معظم شواطئه لبناء المرافىء الصالحة لرسو السفن إلى أن يصبح الطريق البري المار بمكة المكرمة أهم طريق للتجارة . وكانت تمر بمكة المكرمة صادرات الشام من قمح ودقيق وفواكه وصادرات اليمن من بخور ولبان وعطور وأحجار كريمة وجلود وأصواف وتمور .

وهكذا نجد أن نشأة مدينة مكة المكرمة يعد نمطاً فريداً بين المدن لأنها نمت وسط منطقة جرداء لا تزدهر فيها الزراعة .

المدينة الحديثة والغذاء :

أما المدينة الحديثة ووسائل نقل الغذاء والماء اليها فان المتتبع لنشأة كثير من المدن الحديثة يجد أنها لم تعد أسيرة المواضع التي يتوفر فيها الغذاء . لقد استطاع الانسان أن يقيم مدناً في مناطق جافة تنأى كثيراً عن موارد المياه كما هي الحال في مدن شمال شيلي . حيث ينقل الماء في أنابيب عبر الصحراء مسافة مئات من الأميال الى مناطق استخراج النيترات . وذلك من المجاري التي يغذيها ذوبان الجليد على جبال الأنديـــز .

وفي مدن تعدين الذهب في غرب استراليا مثل « كولغاردي — Coolgardie » وكالغورلي — Kalgoorlie » ينقل الماء عبر الأنابيب من « موندرانغ — Mundaring » على بعد ثلاثمائة وخمسين ميـــلاً .

لقد أصبحت المدن بفضل الامكانيات المادية وسهولة المواصلات ، تعتمد في توفير احتياجاتها الغذائية على أطعمة ومشروبات تستورد من جميع أنحاء العالم . فعلى سبيل المثال ، لو قصدت مطعماً بمدينة الرياض وتناولت فيه وجبة غداء مكونة من دجاج وأرز وبعض الخضراوات والفواكه مثل التفاح والموز والبرتقال ، ثم تناولت كوباً من الشاي بعد ذلك ، فإن هذه الوجبة التي تناولتها في سهولة ويسر . قد استوردت من الدول الآتية :

الدجاج من فرنسا أو الدانيمرك أو الولايات المتحدة ، وهناك دجاج محلي ، إلا أن أسعاره مرتفعة . كما أنه لا يكفي الاستهلاك .

الأرز من مصر أو الولايات المتحدة أو غيرها .

الخضراوات من انتاج المناطق القريبة من الرياض وبعضه مستورد من الخارج .

التفاح من لبنان أو استراليا .

الموز من الصومال أو الفلبين .

البرتقال من مصر أو لبنان أو المغرب .

الشاي من سيلان أو الهند .

أي أن هذه الوجبة مصدرها على الأقل ست دول . أما الماء الذي يصنع به « الشاي » فقد يكون أمطاراً سقطت في فترة تتراوح بين خمس عشرة سنة وعشرين ألف سنة احتفظت بها طبقات الأرض كنوع من ذكريات الماضي الممطر الذي شهدته شبه الجزيرة العربية . والذي بدأت معظم مناطق المملكة تبحث عنه بين طبقات أرضها ووصلت في بحثها الى أعماق تزيد على ثلاثة آلاف متر ! ولم لا ؟ أليس هذا الماء هو حقها ونصيبها من ميراث العصور الجيولوجية الممطرة ؟

لقد صاحبنا المدينة في هذا المقال كائناً عمرانياً حضارياً . واتضح لنا أنها في مهد نشأتها ما كانت لتجرؤ على أن تبتعد عن مصادر المياه والغذاء . بل كانت تقترب منها وأحياناً تلتصق بها التصاق الطفل بصدر أمه .

وبعد مرور آلاف السنين غدت « المدينة » جريئة . وتمردت على قيود الغذاء والماء التي تحدد لها مكاناً معيناً ، وأصبحت المدن تنمو في أماكن جرداء لا ماء فيها ولا نبات ومع ذلك يأتيها الغذاء والماء من أماكن بعيدة مطيعاً للامكانيات المادية ومسوقاً بالوسائل التكنولوجية .